يوسف غصوب

وَمض في غمام

القَبو

في قبونا ، في الضيعة ، جنيةٌ في موقدة .

فاذا كان الشتاء وازدحم الليل في قبونا اوصدنا ، دون الرياح الهوج والبرد المتطفل ، بابَ القبو والنافذة . واسرجنا فاستدارت جزيرة من نور ضئيل على حصير ، قرب الموقدة . وتربّعنا على الحصير ، متحلقين حول الجدة ، ضارعين اليها ان توقظ الجنية .

تضرم الجدة النار فتندلع الالسنة وتحوم الاشباح على الجدران والحنايا ويعمر القبو ، على ضيقه ، بالارواح والمردة والعمالقة والقماقم والاحصنة المجنحة .

وتحنو الجدة على الموقدة فيلتهب وجهها ، وتشير اشارة فينبعث صوت خافت لا ندري مصدره . ثم يرتفع ويمتد وينسجم رتيباً ، فتتطاير الحكايات والاساطير وتتهافت من كل حدب وصوب وتتألب ، حتى اذا احتشدت وضاق بها الجو اندفعت وصدعت الجدران والحنايا وانقلبت الدنيا في اعيننا .

ندبّ مع الحكايا حيناً على الارض ، ثم نأخذ باجنحة الاحصنة وننطلق في الفضاء . ندنو من النجوم ، نرود القمر والكواكب . نحصي النجوم باصابعنا فتزجرنا الجدة خوف ان تنبت التآليـــل في اطرافها. ونتمادى في الشرود حتى لا قبوَ ولا ليـــلَ ولا جدةَ ولا موقدة .

نحن في اجواء النور ، نتمدد على حشايا الغمام او ندور في حلقات النسور . نذهب في بحران لا نعود منه الا على زمجرة العاصفة دويّ الرعد فنهلع . ويمر الرخ فنعلق بمخالبه ويهوي بنا .

نتهاوى ونتهاوى ونظل حتى نهبط في اودية من الياقوت او بحار من المرجان . نجول في مدن عجيبة خاوية خالية وقصور مسحورة ومغاور مرصودة .

نمخر في سفن الحيتان ونغوص الى الاعماق ونجزع فنطبق الاجفان رهبة ، فاذا نحن في احضان الصبايا يداعبننا ويبتسمن لنا . في احضان الصبايا حدائق ورد وياسمين وفوارات لآلىء وطيور تنتفض فتنقلب اشعة مفردة . في احضان الصبايا تنبت لنا اجنحة فنطير ، ويعبق فينا الطيب فلا ندري أنحن ازهـار ام ماذا ؟ نمرّ اخفّ من النسيم على مواطن لم نألفها من قبل ونرى اناساً كانوا في عروقنا منذ كان البشر . نرى نفوسنا بغير مرآة . تكلمنا الفراشات وتؤانسنا الاشجار وتغني لنا الاصداء . نرفّ على اجسامنا الخامدة ولا نعجب انّا متنا ولا نزال . لا نعجب من اي شيء عجيب نراه .

في حضن الصبية جدة طفلة تقهقه . حولها صغار يحرّون لحاهم ويتعثرون بهـــا . لا تلبث القهقهة ان تصبح عواء ذئاب . تهاجمنـــا الذئاب بسرج من نار . تصرعنا كلاب نابحة صاخبة فتخفق قلوبنا ذعراً ويندى جبيننـــا عرقاً ، فنفيق بصدور واجفة ، فاذا اشعة الشمس تلعب في شعورنا وتداعب وجوهنا ، واذا نحن في قبو خال : لا جنيةَ ولا دنيا عجيبة .

الساقية

بالقرب من قبونا ، في الضيعة ، تمرّ الساقية .

النبع بعيد في اعلى الضيعة . فكلما طلع الصبح في الصيف حملنا اباريقنا الى النبع لنملأها من زلاله . النبع المستظل باشجار الجوز والحور ينقلب صاخباً من ظلمة اسره ويتدفق هازجاً في النور ، يهتف للحرية ، يحلم بالتشرد والانتشار ، يتطلع الى الآفاق .

يمرّ مسرعاً والشوق يدفعه ، لكنه ما يلبث ان يرى نفسه اسيراً بين جدارين ، فيكتئب ويأخذ في التفتيش عن مفر. يحسد الطير والفراشات والنسيم الذي يمرّ به والغمام.

يفتش عن الحرية فيقولون له : « انت الآن ساقية ولا خير فيك ما دمت حراً . انت حرّ الى ان تشاء » .

فتجري الساقية على مضض ، حتى اذا وجدت منافذ وغفلة من الرقباء ارسلت طلائعها في الخلاء، فاندفعت الطلائع بقوة وانبسطت مرحة تتغلغل بين الحجارة والاعشاب. لكنها ما تنتشر حتى تفيض ، فتبكي الساقية ما فقدت من طلائعها وتعود الى كبت ما بها من طموح وتقول : « في الحرية ضياع ! »

وتجري ، طوال النهار ، هادئة في وحشتها لا يؤنسها الا اولاد صغار يداعبونها ويماشونها ويلقون فيها ضحكاتهم وازهارهم واوراقهم وفتات طعامهم .

تدور بهم في الطرقات وبين البيوت وتحاول ان تقص عليهم حكاياتها ، لكنهم لا ينصتون بل تتغلب جلبتهم على حديثها فتخفت من صوتها وتمضي .

لكن اذا هبط الليل وخيم السكون ومرت بالقرب من قبونا تمهلت واصغت لما يتلى في قبونا في الشتاء من حكايا الجنية قرب الموقدة .

واصغت في الصيف لثرثرة صغار نبذتهم عتمة القبو وجرّدهم الحرّ من بعض ثيابهم فتحلقوا على المسطبة تحت ضوء القمر . تصغي اليهم حتى اذا ملّوا وسكنوا شرعت في القصص عليهم وعلى الطحلب والعشب والحصى .

« انا من السماء » ، تقول الساقية بعزة وافتخار . فيضحك الطحلب وتهزأ الحصى وتعجب الازهار .

وننظر ، نحن الصغار ، الى السماء . ولا تأبه الساقية فتقول : « انا من السماء فلا تعجبوا . انا جاورت القمر والنجوم وحلقت مع النسور وجبت الابعاد مع الشواهين فرأيت اطراف العالم وعجائب الكون » .

فنقول : « وهل من ابعاد وراء الجبل والسهل ؟ » وتقول الساقية : « لهوت بالبرق ودوّيت مع الرعد وتطهرت بنار الصاعقة ، فانا نقية نقاء السماء » .

فتنبسط السماء في اعيننا ، فنغمس في الساقية ايدينا ونمسح بها وجوهنا ، علّنا نشتمّ منها رائحة السماء ونعود منها بالطهر والنقاوة .

وتقول الساقية : « انا جلّلت بالطهر متون الجبال وغردت في الاودية فاحصدت فيها الرياحين والاطيار ، وتغلغلت في احشاء الارض فدبّت فيها الحياة واهتزت الجذور فحنت الى النور . توغلت في الاعماق فمررت بالماس والياقوت والزمرد وسائر الحجارة الكريمة فحمّلتني بعض اسرارها وتركت فيّ من صورها . فانظروا اليّ تشهدوا بصدق كلامي » .

فننظر ، فنرى فيها لآلىء القمر وذهب المصابيح وفضة الحباحب .

وتأنس بنا الساقية ، فتثرثر وتثرثر وتقول : « خذوا ، ايها الصِبية ، بحفناتكم من نقاوتي قبل ان تكدر » . فنعبّ فيها .

وتقول الساقية « انا امضي لاعود » . فنحزن ونقول : « متى تعودين ؟ »

وتقول الساقية : « لا ادري ، غير اني لا بدّ عائدة » . فنقول : « واذا ذهبنا ، نحن ، فهل نعود ؟ »

الصّدى ١

نطلّ على الوادي وننادي .

ننادي ، فيجيب الغادون والغاديات الى الكروم والينابيع . يجيب المنتشرون للصيد في الادغال والمنحنيات والحقول . يجيب المكارون من شتى الابعاد، ترنّ الجلاجل في اعناق دوابهم وتدوي المنعطفات بنبرات مواويلهم وتئن الطريق الوعرة بوقع الحوافر .

بالنداء نوقظ الغابة ، فتتثاءب وتتمطى وتأخذ بالوشوشات .

يحنو الصنوبر على الشربين ، ويهمس العفص باذن السنديان ، وتتنهد الغابة تنهداً عميقاً فتنفح الوادي بما حبست من اعرافها في وحشة الليل .

ننادي ، فتهبّ العصافير من وكناتها مذعورة وتتفجر في الفضاء تخطّ عليه سطور تغاريدها وحلقات اهوائها وتغيب في الاجواء وراء اجنحة الغمام . تنقضّ العصافير على العنب والتين في غفلة الصيادين والنواطير وتمرّ مرّ السهم بين ايادينا ومدى ابصارنا .

ننادي ، فيرجع لنا النداءَ المنحدرُ المقابل مشفوعاً باجراس الصلاة ، وتضج الوادي بالحياة ، تعمر بالطيب وحفيف الدوح وثرثرة المياه في الاغوار ، تعمر بقفز الاماعز وثغاء النعاج وخوار الابقار .

ويزقو الديك ، فتطلع الشمس في جلالها وتلملم الظلال من الحقول وتبسط سلطانها على القمم والتلال وتتسلل الى الوهاد .

ونحن الصغـــار ، نسرح بين الصخور ، نركض وراء الفراشات ، نتسلق الاشجار ، نختبىء في الآجام والمغاور وننادي .

ينادي بعضنا بعضاً ، ونصغي . يردّ البعض نداء البعض ولا نسمع الا ما نريد ان نسمع . نحن الحياة في الوادي ، انى نادينا يرجع الصدى نداءنا .

وننظر الى السماء وننادي . ترى يأتينا صوت من السماء ام ترجع لنـــا السماء صدى ندائنـــا !